

المكان في شعر نزار قباني

بيروت أنموذجاً

طالبة الدراسات العليا: هبة فاخوري

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة البعث

بإشراف: أ.د. جودت إبراهيم

ملخص

يعبر المكان في العمل الأدبي عن وعي الأديب الفكري والنفسي، ويرتبط بذاكرته وتجربته الحياتية، فيكون بمنزلة علاقة تبادل وجداني وفكري، لأنه أقرب عناصر العمل الفني إلى الأديب؛ فهو يمثل البعد الواقعي والمادي للحدث الشعري، ويساعد على فهم مغزى النص الشعري.

وانطلاقاً مما سبق وجدنا أنّ للمكان حضوره المكثف في شعر "نزار قباني"، لأنه يرتبط بذاته؛ إذ يتحدث المكان بلغة الذات، ويذهب هذا البحث إلى دراسة المكان في شعره من خلال تجربته الإنسانية التي عكست الرؤية الشعرية للذات المبدعة متخذاً من مدينة بيروت أنموذجاً.

The Place in the Poetry of Nizar Qabbani Beirut as an Example

Summary

In the literary work , the place expresses the rational and psychological awareness of the author. It is also connected with his memory and his life experiences. So it is as an exchanging rational and emotional relation. It is the closest artistic element to the author as it represents material and realistic dimension of the poetic action. It also helps to understand the essence of the poetic .passage

So as we have mentioned above, we find that the place has a concentrated presence in the literary works of the Arab poets, especially the poetry of Nizar Qabbani because it is connected with his inner self as we see the place uses the same language of his inner self. So, in this research, we study the place in Nizar Qabbani 's poetry through his humanitarian experience which has reflected the poetic vision of the creative inner self using Beirut city as an example.

المقدمة:

أسباب اختيار البحث:

ارتبط "نزار قباني" بالمدن التي زارها، وعاش فيها فترةً معيّنة من حياته، فشكّلت جزءاً من ذاكرته، وارتبطت بأحداثٍ مرّ بها، فكان لها خصوصيّتها، وخلّدها شعراً، ولا سيما مدينة بيروت التي ميّزها عن غيرها من المدن التي عاش فيها، فقد احتضنته وشكّلت مصدر أمانه، وكانت بمنزلة الحبيبة التي أوحّت له بحراً من القصائد، كما أنها تشبهه؛ فهي مدينة التناقضات، لأنه على الرغم مما مرّت به من أحداثٍ مؤلمة رفضت الموت والاستسلام، وتمسكت بالحياة والأمل، وهذا ما يذكرنا بحياة "نزار قباني المليئة بالأحداث الأليمة مثل موت زوجته وابنه ونفيه.

من هنا جاء هذا البحثُ محاولة جادة دعت إلى دراسة المكان في شعره، وقد تمثّل المكان في بحثنا بمدينة بيروت.

أهداف البحث:

وقع اختيارنا على هذا البحث نظراً لأهمية المكان في شعر نزار قباني؛ فهو أحد أبرز مكونات شعريته، وهو النافذة التي يطلّ منها المتلقي على أشعاره فيفهمها، ويفهم الخلفية التي تقع فيها أحداث قصائده.

وقد اهتم "نزار" بالمكان فشخصه وجعل منه امرأةً وحبيبة ووطن، وهذا ما نلاحظه من عنونة العديد من قصائده بأسماء أمكنة عاش فيها، وتأتي أهمية هذا البحث انطلاقاً من كونه محاولة، نبحث من خلالها في طرق تشكل صورة المكان في شعر نزار قباني الذي عدّ شاعر الشارع العربي لقربه من المُتلقّي، وتصويره حياته اليومية بكل تفاصيلها، وجزئياتها.

منهج البحث:

سنعتمد في هذه الدراسة على معطيات المنهج الوصفي التحليلي؛ بوصفه نمطاً من أنماط التفكير العلمي، وطريقةً من طرق العمل التي يعتمدها الباحث في تنظيم الدراسة والتحليل لبلوغ الأهداف المطلوبة من البحث فهو (منهج نقديّ يُبنى كقدرة لشرح أغلب العلوم الخاصّة به، وهي التي تعتمد على قواعد أو أنسقة محددة ترتكز عليها في التحليل،

ويعطي أولوية للقواعد والأنسقة التي يحلل في ضوءها، شارحاً لها أولاً، ثم يحدّد في باب تالٍ الظاهرة حجماً وأبعاداً، وينتهي بمقارنة بين القاعدة والتنسيق).¹

مستفيدين من القراءة التأويلية في البحث في طرق تشكل صورة المكان في شعر نزار قباني.

مصطلحات البحث:

المكان لغة كما ورد في معجم العين : "موضع الكينونة"²، وقد ذُكر عند ابن منظور بأنه (الموضع والجمع أمكنة)³، كما أورده الفيروز أبادي في معجمه بأنه "الموضع، والجمع منه أمكنة وأماكن"⁴.

وأما تعريف المكان اصطلاحاً: فقد عدّ أفلاطون "المكان حاوياً وقابلاً لكل حدث وصيرورة"⁵، بينما مثل عند أرسطو "السطح الباطن المماس للجسم المحوي"⁶، أما عند الرازي فهو على نوعين: "أولهما الكلي أو المطلق، وهو الخلاء الذي لا يوجد فيه متمكن، وثانيهما هو الجزئي الذي لا يمكن تصوّره بدون متمكن، لكنه لا ينتهي بنهاية الجسم، بل هو الامتداد في الجهات"⁷.

والوطن لغة: "المنزلُ تُقيم فيه، وهو موطن الإنسان ومحلّه"⁸.

والوطن اصطلاحاً: "هو منزل الإقامة، والمكان الأصلي الذي ولد فيه الإنسان، والوطن بالمعنى الخاص هو البيئة الروحية التي تتجه إليها عواطف الإنسان القومي"⁹.

¹ إبراهيم، جودت، منهجية البحث والتحقيق، منشورات جامعة البعث، 2007-2008، ص: 306-364.

² الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، القاهرة، ج5، ص: 387

³ منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد13، دار صادر، بيروت، 200، ص: 414

⁴ الفيروز أبادي، جمال الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط6، 1998، ص: 1235

⁵ انظر أفلاطون، طيماوس، تر: فؤاد جرجي بربارة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1968، ص: 263.

⁶ صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، مج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982، ص413، نقلاً عن رسالة الحدود، ص94.

⁷ المرجع السابق، ص: 413.

⁸ منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد15، دار صادر، بيروت، 2000، مادة وطن.

⁹ صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، ص: 580

وتجدر بنا الإشارة هنا إلى ضرورة التمييز بين مصطلح المكان والمصطلحات المتداخلة معه كالفضاء والحيّز، فمن النقاد والباحثين من اعتمد مصطلح المكان مثل (سيزا قاسم، عبدالله إبراهيم، ويمنى العيد، وغيرهم...)، بينما اختار بعضهم الآخر مصطلح الفضاء مثل حميد لحمداني، سعيد يقطين، وسمر روجي الفيصل وغيرهم...).

ويعود الفرق بين المصطلحين إلى أن الفضاء أعم من المكان، (فمصطلح المكان يدل على المكان الواحد المنفرد في العمل السردي، بينما يشمل مصطلح الفضاء مجموع الأمكنة التي تظهر في العمل السردي كله، ويكون المكان داخله جزءاً منه)¹.

وقد طابق "حسن بحراوي" بين مفهومي الفضاء والمكان في قوله "إن الفضاء الروائي مثل المكونات الأخرى، لا يوجد إلا من خلال اللغة، فهو فضاء لفظي بامتياز... إنه فضاء لا يوجد سوى من خلال الكلمات المطبوعة في الكتاب، ولذلك فهو يتشكل بوصفه موضوعاً للفكر الذي يخلقه الروائي بأجزائه جميعها، ويحتمله طابعاً مطابقاً... لمبدأ المكان نفسه"².

أما "عبد الملك مرتاض" فقد استعمل مصطلح (الحيّز) مبيّناً أنّ مصطلح الفضاء من وجهة نظره "قاصراً بالقياس إلى الحيّز؛ لأنه يستلزم معنى الخواء والفرغ، أما الحيّز فينصرف استعماله إلى النتوء، والوزن، والثقل، والحجم، والشكل على أن المكان نَقْفُهُ في العمل الروائي على مفهوم الحيّز الجغرافي وحده"³.

ومن هنا نجد أنّ استعمال مصطلح المكان في بحثنا هذا هو الأنسب بوصفه المصطلح الأكثر استعمالاً بين النقاد والباحثين "لاتساقه مع لغة النقد العربي"⁴ على حد تعبير سيزا قاسم.

¹ يُنظر لحمداني، حميد، بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، 1999، ص63.

² بحراوي، حسن، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، 1990، ص27.

³³ مرتاض، عبد الملك، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، دط، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، ص121.

⁴ قاسم، سيزا، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، د0ط، مكتبة الأسرة، سلسلة إبداع المرأة، 2004، ص106.

الدراسات السابقة

أفاد بحثنا هذا من عدد من الدراسات النقدية الكثيرة التي تناولت الشاعر نزار قباني بالنقد والتحليل، وكان أهمها مرتباً زمنياً من الأقدم إلى الأحدث :

دراسة بعنوان "نزار قباني شاعراً وإنساناً"¹ محيي الدين صبحي 1964، وفيه يدرس صبحي نزار من الناحية الإنسانية، وقد اقتصرته دراسته على شعر الشاعر قبل نكسة حزيران.

دراسة بعنوان "شعراء سورية"² لأحمد الجندي 1965، أثار فيها الجندي كثيراً من الآراء حول شعر نزار، ولغته، وتجديده في اللغة والشعر.

ودراسة بعنوان "الأدب العربي المعاصر في سورية"³ سامي الكيالي 1968، درس فيه الكيالي نزار دراسة تصدر عن علم، ومعرفة، واعتبره ظاهرة فنية متميزة.

ودراسة بعنوان " فنون الأدب المعاصر في سورية" عمر الدقاق⁴ 1971، يعرض فيها الدقاق ترجمة لنزار قباني، ويتحدث عن تميزه، وآراء النقاد حوله.

ودراسة بعنوان " نزار قباني شاعر المرأة"⁵ إيليا الحاوي 1973 ، وفيها يرى الحاوي أنّ الوصفية في شعر نزار تغلب الدهنية، وهي وصفية تدل من وجهة نظر الحاوي على قصور الشاعر.

ودراسة بعنوان "الشعر بين الرؤيا والتشكيل"⁶ عبد العزيز المقالح 1981، يرصد المقالح فيه الشعر العربي الحديث ، وتجارب الشعراء المجددين في الوطن العربي ،ومن بينهم الشاعر نزار قباني ، فيرصد بعين الناقد أعماله وتجربته في التجديد ، ويضع يده على مفاتيح التطور والإبداع لديه ، ويرى بعين الناقد المنصف ماله وما عليه.

ودراسة بعنوان "الكون الشعري عند نزار قباني"⁷ محيي الدين صبحي 1982، وفيها يقدم الكاتب فرضية الكون الشعري بديلاً من الموضوعات والمحاور ، ليكون هذا الكون

¹ صبحي، محي الدين، نزار قباني شاعراً وإنساناً، دار الآداب، بيروت، ط1، 1964

² الجندي، أحمد، شعراء سورية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1965

³ الكيالي، سامي، الأدب العربي المعاصر في سورية، دار المعارف، مصر، ط2، 1968

⁴ الدقاق، عمر، فنون الأدب المعاصر في سورية، دار الشرق، سورية، ط1، 1971

⁵ الحاوي، إيليا، نزار قباني شاعر المرأة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ج1، ط1، 1973

⁶ المقالح ، عبد العزيز ، الشعر بين الرؤيا والتشكيل ، دار طلاس ، دمشق ، ط1 ، 1981

⁷ صبحي ، محي الدين ، الكون الشعري عند نزار قباني ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1982

الشعري خلاصة ما يقدمه الشاعر من تصورات ومعاناة في علاقته مع العالم وذاته وكائناته ، هو ليس محكوماً لدى نزار بحدود العلاقة بين الذكر والأنثى ، ويميز فيه بين ما هو نزار قباني ، وبين ما هو غير نزار أي ما ليس نزار نجده في كل ما هو وصف خارجي مقصود لذاته على حد تعبير المؤلف في كتابه .

ودراسة بعنوان "النجسية في أدب نزار قباني"¹ خريستو نجم 1983، وفيها يفسر نجم ما قاله نزار قباني من شعر تفسيراً ينبعث من نرجسيته، التي تولّد نوازح نفسية كثيرة ومعقدة.

ودراسة بعنوان "الضوء واللعبة"² شاكر النابلسي 1986 سلط فيها الضوء على لغة نزار قباني، وذهب فيها إلى أنّ لغته هي لغة الجسد والشهوة فقط، معتمداً فيها على مجموعات شعرية متعددة، وجميعها من أعماله الغزلية دون ذكر شعره السياسي.

ودراسة بعنوان "ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء"³ رجاء النقاش 1992، وهذا الكتاب يتحدث عن نزار قباني فيما يتعلق بقصائده السياسية، وعن علاقته بزعماء عصره.

ودراسة بعنوان "نزار شاعراً وسياسياً"⁴ عبد الرحمن الوصيفي 1995، وفيه يدرس الوصيفي شعر نزار قباني السياسي، ومواكبته للصراع العربي الإسرائيلي، وتطلّعه للحرية واستعادة الكرامة.

ودراسة بعنوان "الأدب العربي المعاصر بعد الاستقلال"⁵ سيف الدين قنطار 1997 ، ويشمل الكتاب دراسة عن شعر نزار قباني، وبخاصة الظواهر اللغوية الجديدة.

دراسة أخرى بعنوان أساليب الشعرية المعاصرة⁶ صلاح فضل 1998، يرى فيها الدكتور الدكتور صلاح أنّ لغة نزار هي لغة حسية في المقام الأول، وأيضاً اقتصرت هذه الدراسة على بعض مجموعات شعر الحب.

¹ نجم، خريستو، النجسية في أدب نزار قباني، دار الراشد العربي، بيروت، 1983

² النابلسي، شاكر، الضوء واللعبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1986

³ النقاش، رجاء، ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1992

⁴ الوصيفي، عبد الرحمن، نزار شاعراً وسياسياً، دار الحريري للطباعة، القاهرة، ط1، 1995

⁵ قنطار، سيف الدين، الأدب العربي المعاصر بعد الاستقلال، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1997

⁶ فضل، صلاح، أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء، مصر، ط2، 1998

ودراسة بعنوان "نزار قباني شاعر لكل الأجيال"¹ مجموعة من المؤلفين 1998، وهو كتاب يضم عدداً من الشهادات، والدراسات عن نزار قباني، والصادرة عن عدد من الشعراء والباحثين والمتقنين، تكريماً له.

ودراسة أخرى بعنوان "الحس الثوري في شعر نزار قباني"² محمد إسماعيل اللبناني 1999، ويتحدث عن البدايات السياسية والثورية في شعر نزار قباني الغزلي.

دراسة بعنوان "نزار قباني رحلة الشعر والحياة"³ ديب علي حسن، سلطت هذه الدراسة الضوء على حياة الشاعر نزار قباني، ونشأته، وعلاقته بعصره، وعلاقة النقاد والأدباء بأدبه..

ودراسة بعنوان "نزار قباني والشعر السياسي"⁴ أحمد تاج الدين 2001، ويتحدث فيه تاج الدين عن الفكر السياسي عند نزار قباني، والجذور الأولى لشعر هذا الشاعر.

وهناك دراسة بعنوان "شعرية المرأة وأنوثة القصيدة قراءة في شعر نزار قباني"⁵ أحمد حيدوش 2001، حاول فيها فهم موقفه من المرأة والقصيدة، وقد تناول حيدوش فيها تجربة نزار قباني في ضوء النقد والتحليل، من أجل بيان أهمية نصه الإبداعي، انطلاقاً من طريقة تناوله للمرأة بوصفها حقلاً واسعاً لتوجيه القيم الإنسانية، ومعطيات الحياة عموماً، وقد اعتمد كل الاعتماد على معطيات المنهج النفسي دون الاهتمام بغيره من المناهج، الأمر الذي جعل الأحكام فيها تنطلق من منظور واحد.

ودراسة بعنوان "نزار قباني شاعر الحب والوطن"⁶ مازن النقيب 2002، تناول فيها النقيب العديد من قصائد نزار، ويكشف بعد التحليل والمراجعة عن تحولات نزار قباني، وعمق ارتباطه بالأرض والإنسان.

¹ مجموعة من المؤلفين، نزار قباني شاعر لكل الأجيال، إشراف سعاد الصباح، إعداد وتحرير محمد يوسف نجم، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1998

² اللبناني، محمد إسماعيل، الحس الثوري في شعر نزار قباني، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1999

³ حسن، ديب علي، نزار قباني رحلة الشعر والحياة، بيروت، المنارة، ط1، 2000

⁴ تاج الدين، أحمد، نزار قباني والشعر السياسي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2001

⁵ حيدوش، أحمد، شعرية المرأة وأنوثة القصيدة. قراءة في شعر نزار قباني، منشورات اتحاد الكتاب العرب،

دمشق، 2001

⁶ النقيب، مازن، نزار قباني ساعر الحب والوطن، دار حازم للطباعة والنشر، ط1، 2002

دراسة بعنوان "دفاعاً عن الشاعر نزار قباني _ محاولة قراءة جديدة في شعره-¹"
لمحمد علاء الدين عبد المولى 2002، وقد قدم المولى في هذه الدراسة أفكاراً نقدية
جديدة تجابه بصورة أساسية بعض الآراء النقدية والإعلامية الشائعة حول تجربة الشاعر
نزار قباني ، في محاولة لإعادة النظر في هذه الآراء على ضوء الحوار النقدي الحر
مع شعر قباني نفسه ، وذلك بهدف إزالة الالتباسات الواقعة في قاع القراءات النقدية
المتسرعة والمرتبلة لنتاج الشاعر والسعي لاكتشاف جوهر الجمال الكامن في عمق
تجربته ، والدفاع عنه باعتباره قيمة إنسانية مطلقة.

ودراسة بعنوان "نزار قباني ثورة وحرية"² جوزيف الخوري طوق 2005، وهي دراسة في
عشرة أجزاء، تضم مجموعة من الشهادات ، بأقلام عدد من الباحثين والمثقفين عن نزار
قباني.

والدراسة الثانية بعنوان "الشعر السياسي عند نزار قباني ومستوياته الفنية"³ لعبد الهادي
صافي 2008، والذي حاول فيها إثبات أن نزاراً ، منذ البداية ، لم يكن مبتعداً عن
قضايا أمته ووطنه ، وأن المرأة كانت قضية سياسية مهمة في شعره ، ودواوينه الغزلية
الأولى قبل النكسة كانت تمهيداً لشعره الملتزم ، الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بأحداث أمته
ووطنه ، ومجتمعه الذي يعيش فيه ، مقارياً في دراسته هذه المنهج البنوي الذي يحتفل
بالنص من الداخل .

ودراسة بعنوان " قراءة النص الشعري لغة وتشكيلاً - نزار قباني نموذجاً تطبيقياً-"⁴
هايل الطالب 2008، وهي دراسة لسانية للغة نزار قباني الشعرية.

ودراسة بعنوان " نزار قباني شاعر الوطن والحب والسياسة"⁵ ياسين داوودي 2009،
يتحدث فيها الكاتب عن حياة نزار الإنسان، ويظهره إنساناً وشاعراً وصاحب قضية.

¹ المولى ، محمد علاء الدين ، دفاعاً عن الشاعر نزار قباني - محاولة قراءة جديدة في شعره - د. د. ، ط1 ،

2002

² طوق، جوزيف الخوري، نزار قباني ثورة وحرية، دار نوبلس، بيروت، لبنان، ط2، 2005

³ صافي ، عبد الهادي عبد العليم ، الشعر السياسي عند نزار قباني ومستوياته الفنية ، دار الإرشاد للنشر، حمص

، د.ط ، 2008

⁴ الطالب، هايل ، قراءة النص الشعري لغة وتشكيلاً، نزار قباني نموذجاً تطبيقياً، دار الينابيع، دمشق، ط2،

2008

⁵ داوودي، ياسين، نزار قباني شاعر الحب والوطن والسياسة، الدار المركزية للطباعة والنشر، دمشق ط1،

2009

ودراسة أخرى بعنوان "أيام مع نزار قباني"¹ غريد الشيخ 2012، وفيها ترسم الكاتبة للقارئ العادي ملامح شخصية نزار قباني وشعره، وفق طابع قصصي بسيط، مُفعم بالموودة والحس الواقعي الذكي.

ودراسة أخرى بعنوان "التناص والتلاص في الشعر العربي الحديث والمعاصر"² جودت إبراهيم 2015، وقد قدم هذا الكتاب تغطية شاملة لمفهوم التناص وتطبيقاته في الشعر العربي المعاصر على مدى الساحة الأدبية العربية خلال قرن ونيف من الزمن، ومن الشعراء الذين دُرست أشعارهم بوصفها نماذج في هذا الكتاب كان الشاعر نزار قباني. وسنحاول في هذا البحث أن ندرس المكان في شعر نزار قباني متخذين من مدينة بيروت أنموذجاً تطبيقياً لهذه الدراسة.

أهمية المكان في الشعر:

للمكان أهمية كبيرة في حياة الشعوب عبر الزمن، فله دور مهم في علاقة الكائن البشري بمحيطه، وتفاعله مع هذا المحيط، (لأن المكان يعني بدء تدوين التاريخ الإنساني، ويعني الارتباط البشري بفعل الكينونة لأداء الطقوس اليومية للعيش، وللوجود، ولفهم الحقائق الصغيرة، ولبناء الروح، وللتراكيب المعقدة والخفية، ولصياغة المشروع الإنساني ضمن الأفعال المبهمة)³.

إذا فالمكان يمثل عاملاً مهماً في بناء شخصية الإنسان، لتكون هذه العلاقة الوثيقة بين الطرفين نقطة ارتكاز أي عمل إبداعي، سواء في مجال العلم أو الأدب، أو غيرهما؛
(قل لي أين تحيا أقول لك من أنت)⁴.

وتتبع أهمية المكان في الأدب من كونه مصدراً للعلوم الإنسانية المتنوعة، وانضمامه إلى التراث الثقافي والروحي للأمم على اختلافها وتنوعها، وقدرته على الإيهام بالواقع، إضافة إلى اتسامه بالخلود والديمومة، على عكس المكان الجغرافي الذي يزول ويتلاشى مع الزمن، (ولقد كان المكان في نظر عصر النهضة هو المقولة الأساسية في النظرة

¹ الشيخ، غريد، أيام مع نزار قباني، النخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 2012

² إبراهيم، جودت، التناص والتلاص في الشعر العربي الحديث والمعاصر، حمص، ط1، 2015

³ النصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1986، ص: 395

⁴ لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ترجمة سيزا قاسم دراز، ضمن كتاب جماليات المكان لمجموعة من

الباحثين، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988، ص: 63

البصرية للعالم، فالتصوير في الثقافات الواقعية التوسعية التي تتخذ من العالم موقفاً إيجابياً، يضع الأشكال ذي بدء في سياق مكاني مترابط، ثم يجعلها بالتدرج مادة خلفية للمكان، وأخيراً تذيبها تماماً في هذا المكان).¹

والمكان في الأدب ليس وجوداً شكلياً وحسب، بل هو عنصر تشكيلي إذ يمكن له أن يتحول إلى رمز، أو قناع يلجأ إليه الأديب عند شعوره بالعجز عن تصوير واقعه، أو البوح بحقيقة ما، ليكون هذا المكان المعادل الموضوعي للواقع الحقيقي الذي عجز الأديب عن تصويره بأبعاده، ودلالاته بشكل مباشر.

ولقد توصل الأديب إلى إدراك المكان، وفهمه، عبر سلاحه الفعال الذي هو اللغة، لينقل هذا المكان، باستخدام لغته، من المكان الجغرافي المحسوس إلى المكان العاطفي المفعم بالمشاعر، والقادر على أن يولد فينا كتلة من الأحاسيس المتناقضة، ليصبح المكان في الشعر (المكان التخيلي الذي ينفرد بمقوماته الخاصة، وبأبعاده المتميزة، فهو فضاء تؤسس اللغة).²

وللمكان تأثير مباشر في نفس الأديب، وخاصة الشاعر الذي تمكن من خلاله التعبير عن الكثير من المشاعر والقضايا.

فقد أثرت عوامل عديدة في تشكيل رؤية الشاعر للمكان، إذ لعبت الظروف النفسية، والواقع المعيش، الدور الأكبر في تشكيل صورة المكان في شعر الشاعر الحديث، كما ارتبط المكان عنده بالوطن، وبالقضايا الوطنية، والسياسية، نتيجة لارتباطه بالبعد الاجتماعي المتعلق بدوره بالبعد السياسي، ومن هنا كانت علاقة المكان مع قضايا الشعوب علاقة قوية، و متماسكة، (إذ لا يمكن تصور الأحوال الاجتماعية، والاقتصادية، والأجواء الثقافية، بمعزل عن ظروف الحياة السياسية، لأنها تتفاعل جميعاً

¹ هاووزر، أرنولد، الفن والمجتمع عبر التاريخ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، ج1، 1981، ص:435

² سويرتي، محمد، النقد البنوي والنص الروائي، نماذج تحليلية من النقد العربي، إفريقيا الشرق، ج2، ط1،

1991، ص: 83

ضمن بوتقة الحياة العامة، التي تؤلف مع بعضها نسيجاً واحداً، فتؤثر كل واحدة منها في الأخرى، وتتعكس عليها).¹

وفي العصر الحديث استطاع الشاعر توظيف النواحي الجمالية للمكان في تجسيد مواقفه الفكرية والحياتية، (ولكل مكان بعده النفسي، والمكان الذي لا يُثير مقداراً ما من المشاعر تعاطفاً أو تنافراً، فلما يستحوذ على اهتمام الفنان)²، لذلك اهتم الشاعر باختيار المكان، فهو يمثل مشاعره ومواقفه.

وقد ارتبط الوطن بالأدب ارتباطاً وثيقاً على اعتبار أنّ الفن انعكاس لحياة الإنسان وسلوكه ، (فالأدب أو الفن ليس انفعالاً جارفاً لا علاقة للإرادة به ، ولكنه انفعال منظم يتم وفقاً لإرادة صاحبه ويأثف مع تفكيره ، فالقصيدة الفنية خلق جديد يبدعه الشاعر نتيجة عملية شعورية ، يشارك العقل في إخراجها إلى النور ، والانفعال يختلط بالذهن في العمل الأدبي ، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر سواء في الإنسان نفسه أو في الأثر الفني ، فهما متداخلان يؤثر كل منهما في الآخر)³، ومن هنا نشأ الاهتمام بالمكان الفني (نتيجة لظهور بعض الأفكار والتصورات، التي تنظر إلى العمل الفني على أنه مكان تُحدّد أبعاده تحديداً معيناً)⁴.

وتبعاً لذلك لعب المكان دوراً مهماً في التشكيل الجمالي في الشعر العربي بشكل عام ، والمعاصر بشكل خاص، فقد أولى الشاعر المعاصر المكان اهتماماً خاصاً، وتعددت المدن والعواصم العربية في قصائده ، ونزار قباني واحد من أهم الشعراء العرب المعاصرين الذين كثرت الأماكن في أشعارهم، فقد صرّح أنّ شعره منذ الأربعينيات كان عبارة عن رائحة المكان ، فهو الذي يملي على الشاعر صورته ومشاعره، ويعطيه مادته الشعرية، مؤكداً أنّه لا مهرب من المكان)⁵، لذلك قدّم المكان على الإنسان، كما قدمه

¹ مجيد، محمد حسن علي، فن الوصف وتطوره في الشعر العراقي الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص: 247

² صالح، صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شقيقات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997، ص: 55-56

³ دقاق ، عمر ، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، مكتبة الشرق ، حلب ، ط2 ، 1963 ، ص: 10

⁴ لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ص: 88

⁵ حيدوش، أحمد، شعرية المرأة وأنوثة القصيدة، قراءة في شعر نزار قباني، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2001، ص: 128

على الزمان ، فهو في سيرته الذاتية (لم يُعَنَّ بالإنسان قدر عنايته بالمكان)¹، وقد استطاع أن يخرج بهذا المكان من بعده الجغرافي ، ويمنحه أبعاداً نفسية، وروحية، ووطنية، لدرجة أنه استطاع من خلاله أن يعبر عن مواقفه السياسية، ومبادئه الوطنية، (فهذا الحس العميق بالمكان لا يتأتى إلا إذا كان هو وطن الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض)²، فقد كان كل مكان أو عاصمة عربية زارها نزار قباني تشكل ، في ناحية ما منها، وطناً له، وتعبّر عن همومه وشجونته، يقول:

"كل مدينة عربية هي أُمِّي.."

كل هذه المدن أنزلتني من رحمها

وأرضعتني من ثديها

لذلك لا أدخل مدينة عربية

إلا وتناديني

يا ولدي...

لا أطرق باب مدينة عربية

إلا وأجد سرير طفولتي بانتظاري"³

فقد سكن الوطن قلب نزار قباني، وتغلغل عشق القومية العربية في أعماقه، فعلى الرغم من أنّ نزار قباني عُرف بشاعر المرأة، وارتبط شعره بالحب والغزل، إلا إنّه كان بحقّ شاعر الوطن، يتناول همومه، ويحمل لواء قضايا الوطن، وهذا الشعر تأثّر إلى حدّ كبير بالأحداث الوطنية الكبرى، فتميّز شعره الوطني بصدق العاطفة في التعبير عن مشكلات أمته، "واهتم باللفظة من حيث قدرتها على التعبير الصادق، والمعنى المباشر الذي يصور واقع الحال"⁴، ولم يهتم بلفظ جزل، أو معنى غامض يحقق ابتكاراً، أو متعة. وقد لعب المكان دوراً كبيراً في تكوين لغة نزار قباني الشعريّة، إذ ظهر الموروث الأندلسي في شعره في إسبانيا لاسيما في ديوانه (الرسم بالكلمات)، ونلاحظ أنه يمكن تقسيم شعره حسب الأمكنة التي كتب قصائده فيها:

¹ النابلسي، شاعر، الضوء واللعبة، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986، ص: 97

² عثمان، اعتدال، إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، د.ط، 1988، ص: 6.

³ قباني، نزار ، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، ص: 22

⁴ مجيد، محمد حسن علي، فن الوصف وتطوره في الشعر العراقي، ص: 273

فقد كتب في لندن أجمل دواوينه (ديوان قصائد)، و أبدع في مدريد (ديوان الرسم بالكلمات)، بينما اندرجت قصائد الصين في المرحلة الصفراء، وقصائد بريطانيا ضمن المرحلة الرمادية ، وقد كتب في دمشق (قالت لي السمراء، وأنت لي، وحببتي)، بينما كتب في بيروت (قصائد متوحشة، وكتاب الحب، وقاموس العاشقين، وقصيدة بلقيس)¹. وقد ارتبط المكان عنده ارتباطاً وثيقاً بالزمن وعناصر العمل الشعري الأخرى، فالشخصيات مثلاً التي تتأثر بمكانٍ ما، لا تتأثر بالمكان "إلا من خلال فعل الزمن في ذلك المكان"²، كما إن المكان مهما كانت مقصوراته مغلقة فإنها تحتوي على الزمن المكثف، وتلك هي وظيفة المكان³.

أي لا يمكن فصل المكان عن الزمان لأنهما يرتبطان بعلاقة قوية ومتداخلة، وهذا ما وجدناه في قصائد نزار قباني التي كتبها في بيروت التي كان لها نصيب مميز في شعره، فقد خصّ بيروت بديوان كامل يحمل عنوان "إلى بيروت الأنتى مع الاعتذار"، ويتضمن القصائد الآتية:

- ست الدنيا يا بيروت.

- سبع رسائل ضائعة في بيروت.

- بيروت محظيتكم...بيروت حبيبتي.

- إلى بيروت الأنتى... مع الاعتذار.

- بيروت تحترق...وأحبك.

إذ شكّلت بيروت هاجساً رافق مسيرته الشعرية، فمثّلت له البيت، والأمان، والإلهام الشعري....، فكانت بالنسبة إليه المدينة التي لا تتكرر في تاريخ الشعر، (ولا يُعدّ الشاعر شاعراً- من وجهة نظره- إلا إذا تخرج منها)⁴.

¹ انظر حيدوش، أحمد، شعرية المرأة وأثرها القصيدة -قراءة في شعر نزار قباني-، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص142-147.

² النعيمي، أحمد حمد: إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ط1، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، 2004، ص78.

³ يُنظر باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، ط2، المؤسسة العامة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ص39..

⁴ حيدوش، أحمد، شعرية المرأة وأثرها القصيدة في شعر نزار قباني، قراءة في شعر نزار قباني، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، ص147-148.

فقد حمل المكان ،متمثلاً ب (بيروت) ،في قصائده بعداً إيديولوجياً، إذ عبّر من خلاله عن شخصيته وأفكاره وقناعاته، وعن الخطاب الذي أراد أن يوجهه إلى المتلقي، فمثلت له بيروت الحرية، وهذا ما دفعنا إلى اختيار هذه المدينة أنموذجاً لدراسة المكان في شعر "نزار قباني".

بيروت في شعر نزار قباني

أحب نزار قباني بيروت من أعماقه ، فكانت مختلفة في كل صفاتها، وعطائها، وفيما منحته لشاعرنا من حب وغرام، إذ عدها حبيبته، فعشقها بجنون، وقد كانت له رؤيا خاصة تجاه لبنان بشكل عام، فهو "موطنه المختار بعد أن نفر من الدول العربية، ونفرت هي منه، ومن ثم أخذ لديه ملمح المعشوقة على طريقة شعره الغزلي الأول"¹. و"نزار" يرى لبنان معشوقته على الرغم من دماره، وعلى الرغم مما لحق به من خراب، واصفاً مأساته المختلطة بالحب والأمل، ليرى فيه جنته ، مؤكداً إيمانه بعودة الحياة الهائلة إليه، مكتفاً ما يريده من معنى في عبارة (الله يفتش في خارطة الجنة عن لبنان) ليترك للقارئ عملية إكمال إنتاج هذا الوصف من خلال تعميق النص الأدبي في ذهنه، فلبنان هو سر الجمال ، وهو بالنسبة لشاعرنا أجمل البلدان،. يقول:

"الله يُفْتَشُ في خارطةِ الجنّةِ عن لبنان

والقَمَرُ الأَخْضَرُ

عادَ أخيراً كي يتزوَّجَ من لبنان

أعطيني كَفِّكَ ...

يا جَوْهَرَةَ اللَّيْلِ، وَزُنْبَقَةَ البُلْدانِ"²

وقد كانت بيروت أكثر مدينة لبنانية أثرت في شاعرنا ، فقد أحبها حباً جماً وكانت نظرتة إليها مليئة بالحب والجمال على الرغم من كل ما لحق بها من دمار بسبب الحرب. والشاعر يؤكد لنا حبه لبيروت على الرغم مما فيها من متناقضات فهذه المدينة الصغيرة جامعة للكثير من التناقضات الضدية كالحب(متمثلاً بحبه وتعلقه بمدينة بيروت التي

¹ الوصيفي، عبد الرحمن محمد، نزار قباني شاعراً سياسياً، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر،

القاهرة، ط2، 2002، ص:192

² قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 587

كانت مصدر إلهامه الشعري)، والحرب (متمثلةً بالحرب الأهلية التي كانت السبب في المصير المؤلم الذي آلت إليه مدينة بيروت)، والجمال (متمثلاً بواقع مدينة بيروت قبل الحرب الأهلية)، والقبح (متمثلاً بالحرب الأهلية وما جرّته على مدينة الحرية والجمال من دمار وألم) والحياة (متمثلةً بما منحته لشاعرنا من أمل وحرية)، والموت (متمثلاً بحادثة موت زوجته بلقيس في أحد الانفجارات)؛ ولهذا فهو يراها دماءً وجواهر، وجوعاً كافراً، وشعباً كافراً، وظلماً وعدلاً، وسيياً وقتلاً وشاعراً، إذ يقول :

"ما زِلْتُ أُحِبُّكَ يَا بَيْرُوتَ المَجْنُونَةَ

يا نَهَرَ دِماءِ وَجَواهِرِ

ما زِلْتُ أُحِبُّكَ يَا بَيْرُوتَ القَلْبِ الطَّيِّبِ

يا بَيْرُوتَ الفِوضَى...

يا بَيْرُوتَ الجِوعِ الكافِرِ، والشَّبَعِ الكافِرِ

ما زِلْتُ أُحِبُّكَ يَا بَيْرُوتَ العَدْلِ

ويا بَيْرُوتَ الظُّلمِ

ويا بَيْرُوتَ السَّبِي

ويا بَيْرُوتَ القاتِلِ والشَّاعِرِ"¹

وهو هنا يحاول إيصال مدى تأثيره للحال التي وصلت إليها هذه المدينة، من خلال إيراد جملة من العبارات المتناقضة والتي توحى بمشاعر مضطربة تختلج في نفسه ، بالإضافة إلى قوة العبارات التي تتلاءم مع صعوبة ما واجهته بيروت من ظروف وأحداث مؤلمة. وعندما دعا " نزار " بيروت بأنثاه نقل للمتلقي مشاعر الأمل والانكسار، فقد أمدت بيروت شعر نزار بالحرية، ومنحته من الجمال والحب ما أغنى مسيرته الشعرية هذه، فاستطاعت بما منحته من حرية أن تشرع أبواب الأمل أمامه من أجل بناء مستقبل أفضل، لذلك بكى نزار فقدانها بحرقة، وكان ضياعها يعني بالنسبة إليه ضياع الحياة بكل معانيها، يقول:

"آه يا بَيْرُوتَ .. يا أنثايَ من بين ملايين النِّساءِ

يا رَحِيلاً بَرْتِقالياً على وِردٍ.. وبرقِوقٍ... وماءٍ

¹المصدر نفسه، ج3، ص:589

يا طموحي_ عندما أكتبُ أشعاري - لتقريب السماء¹

وبيروت في النص السابق تتصف بأنها رحمٌ فضائيٌّ، وجسدٌ أنثويٌّ؛ فهي أنثى نزار قباني اختارها من بين ملايين النساء، وتشير لفظتا (برتقالياً) و(برقوق) إلى احتراق بيروت، فعندما كانت بيروت تحترق وتتألم، كان نزار يبحث عن وجهها المحاصر بين أسنة اللهب. وهنا يظهر لنا الامتزاج القوي بين المرأة وبيروت، لأنّ المرأة في نظر "نزار قباني" تمثّل كل ما هو أساسي وثابت في حياة الشاعر من قبح كان أو جمال، (وإنّ هذا الامتزاج، امتزاج المرأة بالمدينة، والمدينة بالمرأة هو الشيء الرائع الذي نلاحظه في قصائد بيروت، وهو الشيء الفني الذي يمنح القصيدة ثوب الجِدّة والإبداع)² كما يعرض في مكان آخر ويلات وألم الحرب ومآسيها على هذه المدينة، ويصور كيف قُتِل الحلم، وأردى الحب، وذبل جمال هذه الأنثى بيروت، الأمر الذي أجبره على مغادرتها بقوله:

أطلقوا النَّارَ على الحُلم فأردوه قتيلاً

أطلقوا النار على الحُب فأردوه قتيلاً

أطلقوا النار على البحر، على الشمس، على الزرع

على كتب الأطفال، قصوا شعر بيروت الطويلاً..

سرقوا العُمر الجميلاً...³

فهو يؤنسن بيروت من خلال إضفاء صفات إنسانية على الأفكار المجردة، مما يساعد على تجسيدها، فجعل من الحلم والحب والبحر والشمس والزرع إنساناً يُقتل، ليعبر عن الألم النفسي الذي يعتريه، فعلى الرغم من جمال بيروت وسحرها، لكنها أصبحت مؤلمة في نفس الشاعر.

"فغالباً ما تحضر صورة المدينة في الشعر العربي كأنها متاه لصراع الذات مع نفسها، ومع الآخر، معاناةً لخلل بنيوي صميمي في الواقع العربي، ولا يستقيم نموذج الحضاري،

¹ قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 607

² حيدوش، أحمد، شعرية المرأة وأنوثة القصيدة في شعر نزار قباني، ص: 137

³ قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج3، ص: 596

في محاولة تأصيل الحاضر المستلب، باسترجاع الماضي المنتهي، واستحضار المستقبل الهارب، ومن هنا تبدو المدينة مفهوماً مضطرباً يحمل التعارض إلى حد التناقض¹. ونزار عندما جعل بيروت حبيبة ومحظية أطلق العنان لخياله، مانحاً هذه المدينة صفات الأنوثة، إذ نراه يبتّ كلامه عنها إحساساً بالذنب، وتأنيب الضمير عندما يصورها ثباع وتشتري، وليس أفسى من هذا الإحساس، وأسوأ منه خزيًا وعارًا، إذ باعها قومها، وراحوا يدفنون حزنهم عليها في البارات، ووراء طاولات القمار، فيقول:

"آه كم كُنَّا قبيحين وكُنَّا جناءً

عندما بعناك يا بيروت في سوق الإماء

وحجزنا الشَّقَقَ الفخمةَ في حَيِّ الأليزيه وفي

مايفير لندن

وعَسَلنا الحُزْنَ بالخَمرةِ والجِنسِ وقاعاتِ القمار"²

فقد اتخذت محظية، إذ قسمها المتآمرون كي يسهل عليهم السيطرة عليها والتحكم بها وفق مصالحهم، مما أثر في الشاعر؛ لذا راح يصف الواقع المؤلم الذي لحق بها، فهي معشوقته التي لا يستطع أن يتجاهلها على الرغم من كل ما يحمله لها من جمال في خياله وذاكرته، وكل ما يعتريه من مشاعر الحب في قلبه معلناً سخطه وغضبه من كل ما جرى، ومن كل من أشعل نار الضغينة بين أعضاء الجسد الواحد... وهذا بدوره ما يؤكد أن "الوطن يعني لشاعرنا الحياة والحب والبقاء وليس الحرب والدمار"³، يقول في ذلك:

"ماذا نتكلم يا بيروت

وفي عينيك خلاصة حُزْنِ البشريه

وعلى نهديك المحترقين... رماد الحَرْبِ الألهيه

مَنْ كَانَ يُفَكِّرُ أَنْ نَتَلَقَى ... يا ببيروت وأنتِ خراب؟

مَنْ كَانَ يُفَكِّرُ أَنْ تَنْمُو للوردَةِ آلاف الأنياب؟

¹ روماني، إبراهيم، المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجاً 1925-1962، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1997، ص:28

² قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 613

³ الوصيفي، عبد الرحمن، نزار شاعراً وسياسياً، ص: 101

مَنْ كَانَ يُفَكِّرُ أَنْ الْعَيْنَ تُقَاتِلَ فِي يَوْمٍ ضِدَّ الْأَهْدَابِ؟¹

ونزار يتأسف للحال التي وصلت إليها بيروت بسبب الحرب، بعد أن كانت مدينة الحرية، والمكان الذي استوفى في نظره مميزات الوطن المنشود، لكنّ الحرب نهشت جسدها الجميل وحولته حطياً، ووقوداً للفتنة، مما جعل حزنه عليها كبيراً، فهو هنا يصوّر لنا مرحلتين مرت بهما مدينة بيروت، وشكلت الحرب الأهلية مفصلاً هاماً بينهما؛ وذلك ليقبّح آثار الحرب، وينقّر المتلقي منها، علّه يستطيع أن يغير شيئاً من ذلك الواقع العربي المتفكك، من خلال الإضاءة على التاريخ الحافل لمدينته المثالية، كما يقول في ذلك:

"آه يا بيروت"

يا صاحبة القلبِ الذهبي

سامحينا

إن جَعَلْنَاكَ وقوداً وحطَب

للخِلافاتِ التي تُنْهَشُ من لَحْمِ العَرَبِ

مُنْذُ أَنْ كَانَ العَرَبِ"²

وينتقل الشاعر هنا لبحث في الأسباب التي أدت إلى ضياع بيروت، فيوضح لنا أسباب دمارها واحتراقها، ويطلب منها أن تسامحه متحدثاً بلسان كل عربي، فقد جعلها العرب ساحة لتصفية حساباتهم، وحولوها حطياً، ووقوداً لنيران الحرب، فلا يغيب عن باله " الدور المهم لبيروت على الصعيد العربي، فيحمل العرب مسؤولية ضياعها، وخسارة التآلق الذي كانت تتمتع به، وتُمتّعهم بدورها به في الشرق الأوسط"³

وهو في طلبه الصفح منها، واعتذاره لها، إنما يبرر موقف هجرته منها إبان حربها، فهو يحبها بشدة ، لكن حبه لها، ولجمالها يفوق كرهه للحرب وويلاتها، الأمر الذي وُلد لديه صراعاً داخلياً بين رغبة البقاء، وضرورة الرحيل ، فهي على الرغم من شدة جمالها، استسلمت للحرب، والفتنة وتحولت بفعلهما إلى خراب ملاً شوارعها إلى حلبة صراع بعد أن كانت مسرحاً للحياة، فشخص المدينة وحولها إلى أنثى ذات مشاعر مرهفة، ليدل

¹ قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 579

² قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 613

³ صالح، الياس جرجي، صورة البلاد العربية في أعمال نزار قباني السياسية، أطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية،

1991، ص: 349

على جمالها والخير الكامن فيها، لكن هناك من استغلّ تلك البراءة فدمرها بلا رحمة أمام أعين بعض العرب، الذين فقدوا عروبتهم عندما تخلوا عن بيروت، وتركوها تواجه مصيرها وحيدةً، فقد كانت بيروت في نظر شاعرنا أنثى ضعيفة لم تستطع أن تُدافع عن نفسها، وعن حقوقها، فهذه الأنثى الجميلة تُقتل، على الرغم من أنها هي التي تمنح الخصب والحياة، ولذلك إن ماتت بيروت (بصفتها رمزاً للبنان) سيموت كل شيء معها، وكل من يساهم في قتلها يموت بدوره أيضاً، لأنها في نظره سبب الحياة. يقول:

"إنَّ بَيْرُوتَ هي الأُنثى التي
تَمْنَحُ الخِصْبَ وتُعْطِينَا الفُصُولَا
إنَّ يَمُتْ لُبْنَانٌ ..مُنْتُمْ مَعَهُ
كُلُّ مَنْ يَقْتُلُهُ ...مَاتَ قَتِيلًا"¹

فقد ربط الشاعر في النص السابق مصير العرب بمصير بيروت، فهي سرّ بقائهم حتى ولو كانت منكوبة.

ويرتبط حديث نزار قباني عن بيروت بالمرأة، إذ غالباً ما يجعل منها أنثى يرمز من خلالها إلى الأم والحببية، بل يمكننا القول إنّ بيروت بمنزلة الحببية. والملاحظ أنّ نزار عندما كتب عن مأساة بيروت، أراد أن يعكس واقعاً عربياً متأزماً، وهوية عربية ضائعة، فقد ولدت أحزان لبنان بفعل الحروب في نفس شاعرنا ثورة، امتدت إلى حروف أبجديته، فتحوّل شعره إلى إعلان سياسي غاضب، خاصة عند مقتل زوجته بلقيس الراوي في تفجير السفارة العراقية في بيروت، يقول في قصيدة بلقيس:

"بَيْرُوتُ تَقْتُلُ كلَّ يَوْمٍ واحداً منا
وتبحثُ كلَّ يَوْمٍ عن ضحيّة
والموتُ في فُجْجَانِ قَهْوَتِنَا
وفي مُفْتاحِ شِقَّتِنَا ...
وفي أَزْهَارِ شُرْفَتِنَا ...
وفي وَرَقِ الجَرَائِدِ

¹ قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 627

والحُرُوفِ الأَبْجَدِيَّةِ¹

فحديثه هنا عن بيروت مرتبط بزوجته بلقيس، إذ توحد المكان هنا (بيروت)، بالمرأة (بلقيس).

ويعبر نزار قباني عن موقفه من الحرب الأهلية التي اندلعت في لبنان، فهو استقرّ فيها، وقرّر التفرّغ لكتابة الشعر فيها، فكانت مصدر إلهامه، فألمه ما ألمها، لذا نجده يدعوها لتقوم من أجل الحب، وتتفضل من غفوتها، قائلاً:

قُومِي مِنْ أَجْلِ الحُبِّ، وَمِنْ أَجْلِ الشُّعْرَاءِ

قُومِي مِنْ أَجْلِ الخُبْرِ، وَمِنْ أَجْلِ الفُقَرَاءِ

الحُبُّ يُرِيدُكَ.... يَا أَحْلَى المَلِكَاثِ

والرَّبُّ يُرِيدُكَ... يَا أَحْلَى المَلِكَاثِ

ها أَنْتِ دَفَعْتِ ضَرْبِيَّةَ حُسْنِكِ مِثْلَ جَمِيعِ الحَسَنَاتِ

وَدَفَعْتِ الجَزِيَّةَ عَنِ كُلِّ الكَلِمَاتِ²

لم يكتفِ نزار بجعل سبب المأساة يعود إلى حسن بيروت، وجمالها، بل ذهب إلى أعماق من ذلك، فعلى الرغم من أنه يعشق الجمال، ويقدّسه، ويبحث عنه في كلّ شيء، إلا إنه لم يرصد مأساة بيروت من الخارج فقط بل تعمق فيها؛ ففقدان بيروت جمالها كان أعظم مأساة بالنسبة لشاعرنا، فتعامل معها على أنها أنثى، ونظر إليها نظرة عشق، وجمال، وبعد أن رآها تُسبى، وتُذبح، صرّح موضحاً موقفه منها على طريقتة الخاصة (أنا لستُ مُدْعِيّاً عامّاً ولا وكيل نيابة لأنظّم ملفّ جريمة، إنني شاعر رأى مدينة تُسبى، وتُحرق، تُذبح بشكل عبثي، ومجاني، وغوغائي، فصرخ بطريقتة الخاصة)³، فهو في النصّ السابق يشرح التحول الكبير والخطير الذي لحق بمدينة بيروت، فهي عاشت مرحلتان (قبل وبعد)؛ يمثل الجمال الذي تحدث عنه الشاعر مرحلة ال(قبل)، بينما يمثل الألم المتمثل بالفعل (قومي) الذي يدلّ على السقوط، وما تكرر الشاعر لهذا الفعل في الأبيات إلا إيماناً منه بقوة بيروت وقدرتها على النهوض والعودة أقوى مما كانت عليه.

¹ قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط2، 1998ص:21

² قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 582

³ قباني، نزار، ما هو الشعر، الأعمال النثرية الكاملة، منشورات نزار قباني، بيروت لبنان، ج8، ط1، 1993،

ومرحلة ال(بعد) التي وصلت إليها بيروت نتيجة الأطماع التي طالتها، والانقسامات التي عاشتها، ونلاحظ هنا تكراره الفعل (قومي)، ليشير إلى أنه حريص على رؤيتها كما اعتاد أن يراها دائماً قويّة، جميلة، فاتنة، مدينة الحب والشعراء، ومصدر الإلهام. إن نظرة نزار لمدينة بيروت لا تتجسّد في وصف المكان، والحديث عن تفاصيله، إنّما تتبع من شعور قومي لدى الشاعر، وإحساس بعمق المأساة، إذ جاءت معاني القصائد، وصورها، معبّرة عن الواقع الأليم.

فقد كوت بيروت بحرقه شاعرنا، وجعلته يدفع ثمن حبه الشديد لها، وللأيام الجميلة التي قضاها في كنفها، بفقدانه حبيبته بلقيس في أحد تفجيراتها كما ذكرنا سابقاً، لتصبح هذه المدينة بالنسبة له رمزاً للحبيبية، والثورة، والحرية، ولذلك فهي في نظره ستّ الدنيا، ولا حياة بعدها، فراح يعتذر منها بسبب تخلي عشاقها عنها، فقد تركوها عندما كانت في أمس الحاجة إليهم، فلم يعرفوها كحبيبية، بل كعشيقة يشربون معها زجاجة خمر، وحين ينشب عراك على الطاولة يحملون حقائبهم، ويتركونها وحيدة، فلهذا كانوا السبب في مأساتها:

تَعْتَرِفُ الْآنَ ... بَأَنَّا كُنَّا يَا بَيْرُوتُ
نُحِبُّكَ كَالْبَدْوِ الرَّحْلِ
وَنُمَارِسُ فِعْلَ الْحُبِّ ... تَمَاماً
كَالْبَدْوِ الرَّحْلِ ...
نَعْتَرِفُ الْآنَ بِأَنَّكَ كُنْتِ خَلِيلَتِنَا
نَأْوِي لِفِرَاشِكَ طَوَلَ اللَّيْلِ ...
وَعِنْدَ الْفَجْرِ نُهَاجِرُ كَالْبَدْوِ الرَّحْلِ
يَا سِتَّ الدُّنْيَا، إِنَّ الدُّنْيَا بَعْدَكَ لَيْسَتْ تَكْفِينَا
الْآنَ عَرَفْنَا أَنَّ جَذُورَكَ ضَارِبَةٌ فِينَا
الْآنَ عَرَفْنَا ... مَاذَا اقْتَرَفْتَ أَيُّدِينَا
مَنْ بَاعَ أَسَاوِرَكَ الْمَشْغُولَةَ بِالْيَاقُوتِ
مَنْ صَادَرَ خَاتَمَكَ السَّحْرِيَّ

وَقَصَّ ضَفَائِرَكَ الذَّهَبِيَّةَ¹

لقد كانت بيروت بالنسبة لنزار قباني امرأة لا تتكرر، لا بل أجمل امرأة عرفها، جمعت من الجمال، والحرية، والتمرد ما أمد الشاعر بالعطاء الشعري الثري، وتمتعت بسمات فريدة ميزتها من غيرها، فأخذت عنده بعداً رمزياً فمتلت له البيت، المستقبل، الحبيبة، وهو هنا يقدم اعترافاً صريحاً بمسؤولية العرب جميعاً في وصولها إلى هذا المصير، نتيجة ممارساتهم البدائية في حب مدينة لم تبادلهم إلا بالحب والاحتواء.

النتائج:

استطاع بحثنا هذا أن يخلص إلى جملة من النتائج كان أبرزها:

- اكتسب المكان أهمية خاصة في شعر نزار قباني، وقد ارتبط الزمان بالمكان في أشعاره لأن إدراك الزمان يتم من خلال المظاهر المكانية، وهذا ما تجلّى بوضوح في قصائده التي وثقت بشكلٍ فني مؤثر لأحداثٍ مرّ بها على الصعيد الشخصي (موت زوجته)، وأحداثٍ مرّت بها بيروت على الصعيد التاريخي (الحرب الأهلية).
- للحديث عن المكان في شعر نزار قباني أبعاده النفسية والعاطفية والوطنية والسياسية والتاريخية... فقد جعل من بيروت رمزاً للحب في قصائده، فقد اكتسب المكان في شعره هويته انطلاقاً من صدق المشاعر وعمق المعاناة وشدة الاغتراب الذاتي، إذ أثر المكان فيه، ومنحه هوية خاصة، لذلك جاء معبراً عن تجربة فنية وإنسانية خالدة.
- ارتبط حديث نزار قباني عن المكان بحديثه عن المرأة وكأنهما قضية واحدة، فمزج بين الأنثى وبيروت مستعيناً بخيال رحب، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على أن المرأة بنظره وطن.

- احتلت بيروت في شعره مكانة هامة، فهي التي منحتة الحرية التي يحتاجها ليقول ما يريد دون أي قيد أو شرط، كما رأى أن ضياع بيروت، أو فقدانها يعني فقدان الحياة،

¹ قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، ص: 584، 586

فمنها تُستمدّ الحياة في نظره، ومن هنا كان مزجه لها مع المرأة، لأن المرأة هي صراع الإرادة، ونزاع الحياة، والموت، وهي رؤيا للحق والحرية، ومن هنا كانت بيروت والمرأة عنده وجهان لعملة واحدة.

- جاءت أفكار قصائده في بيروت بسيطة، فهو يريد أن يظهر جمال هذه المدينة الذي شوهته الحرب، وأن يسرد حقائق لا تحتاج أفكاراً عميقة تجهد القارئ، كما يريد أن يعبر عن حقيقة مشاعره تجاه هذه المدينة، وهذا إن دلّ على شيء فهو يدلّ على إخلاصه للجمال والحرية، والشعر معاً دون الاهتمام بأي شيء آخر، فقد اتخذ المكان في شعره تشكيلات ثنائية أبرزها (قبل (مرحلة ما قبل الحرب الأهلية، التي تمثل الحياة والجمال)، وبعد (مرحلة ما بعد الحرب الأهلية، التي تمتّ الموت والألم)).

- عرض لنا نزار قباني وهج عاطفة الحب في قالب سياسي، حين جعل بيروت المرأة التي يحب ويعشق، وظهرت هذه العاطفة قوية، نائرة من خلال انسجامه مع الموضوع، وتأثره به إلى حدّ بعيد.

قائمة بالمصادر والمراجع:

المصادر:

- الدواوين:

1. قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج1، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، 2002
2. قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج2، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط9، 2002
3. قباني، نزار، الأعمال السياسية الكاملة، ج3، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، د.ت.
4. قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج4، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط2، 1998
5. قباني، نزار، الأعمال الشعرية الكاملة، ج 9، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان، ط1، 2002

المعاجم:

1. صليبا، جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، مج2، بيروت، 1982م.
2. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، القاهرة، ج5
3. الفيروز أبادي، جمال الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط6، 1998
4. الكتبي، محمد بن شاعر بن أحمد، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ج4، 1981

5. المقري، أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت، ج5 ، 1968
6. معلوف، لويس ، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، دار المشرق، بيروت، ط3، 1992
7. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ، القاهرة، ط3، 1993
8. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، المجلد 11، دار صادر، بيروت.

المراجع

1. إبراهيم، جودت، التناص والتلاص في الشعر العربي الحديث والمعاصر، حمص، ط1، 2015
2. إبراهيم، جودت، منهجية البحث والتحقيق، منشورات جامعة البعث، 2007-2008
3. تاج الدين، أحمد، نزار قباني والشعر السياسي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط1، 2001
4. جنداري، إبراهيم ، الفضاء الروائي عند جبرا إبراهيم جبرا، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2001
5. الجندي، أحمد، شعراء سورية، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1965
6. الحاوي، إيليا، نزار قباني شاعر المرأة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ج1، ط1، 1973
7. حسن، ديب علي، نزار قباني رحلة الشعر والحياة، بيروت، المنارة، ط1، 2000

8. حيدوش، أحمد، شعرية المرأة وأنوثة القصيدة. قراءة في شعر نزار قباني ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001
9. داوودي، ياسين، نزار قباني شاعر الحب والوطن والسياسة، الدار المركزية للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 2009
10. دقاق ، عمر ، الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ، مكتبة الشرق ، حلب ، ط2 ، 1963
11. دقاق، عمر، فنون الأدب المعاصر في سورية، دار الشرق، سورية، ط1، 1971
12. روماني، إبراهيم ، المدينة في الشعر العربي، الجزائر نموذجاً 1925-1962، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط1، 1997
13. سويرتي، محمد، النقد البنيوي والنص الروائي، نماذج تحليلية من النقد العربي، إفريقيا الشرق، ج2، ط1، 1991
14. الشيخ، غريد، أيام مع نزار قباني، النخبة للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، 2012
15. الصالح، خرفي محمد، جماليات المكان في الشعر الجزائري المعاصر، جامعة منتوري، الجزائر، 2006
16. صالح، صلاح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1997
17. صافي ، عبد الهادي عبد العليم ، الشعر السياسي عند نزار قباني ومستوياته الفنية ، دار الإرشاد للنشر، حمص ، د.ط ، 2008
18. صبحي، محيي الدين، نزار قباني شاعراً وإنساناً، دار الآداب، بيروت، ط1، 1964

19. صبحي ، محيي الدين ، الكون الشعري عند نزار قباني ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1982
20. الطالب، هايل، قراءة النص الشعري لغة وتشكيلاً، نزار قباني نموذجاً تطبيقياً، دار الينابيع، دمشق، ط2، 2008
21. طوق، جوزيف الخوري، نزار قباني ثورة وحرية، دار نوبلس، بيروت، لبنان، ط2، 2005
22. عثمان، اعتدال، إضاءة النص، دار الحداثة، بيروت، د.ط، 1988
23. فضل، صلاح، أساليب الشعرية المعاصرة، دار قباء، مصر، ط2، 1998
- قطار، سيف الدين، الأدب العربي المعاصر بعد الاستقلال، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1997.
24. قاسم، سيزا، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ)، د.ط، مكتبة الأسرة، سلسلة إبداع المرأة، 2004.
25. الكيالي، سامي، الأدب العربي المعاصر في سورية، دار المعارف، مصر، ط2، 1968
26. لحمداني، حميد، بنية النص السردي (من منظور النقد الأدبي)، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت- الدار البيضاء، 1999.
27. اللبناني، محمد إسماعيل ، الحس الثوري في شعر نزار قباني، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1999
28. مجموعة من المؤلفين، نزار قباني شاعر لكل الأجيال، إشراف سعاد الصباح، إعداد وتحرير محمد يوسف نجم، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، ط1، 1998

29. مجيد، محمد حسن علي، فن الوصف وتطوره في الشعر العراقي الحديث،
دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1988
30. المقالح ، عبد العزيز ، الشعر بين الرؤيا والتشكيل ، دار طلاس ، دمشق ،
ط 1 ، 1981
31. المولى ، محمد علاء الدين ، دفاعاً عن الشاعر نزار قباني ، محاولة قراءة
جديدة في شعره، د.ط 1 ، 2002
32. النابلسي، شاكراً ، الضوء واللعبة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،
ط 1، 1986
33. نجم، خريستو، النرجسية في أدب نزار قباني، دار الرائد العربي، بيروت،
1983
34. النصير، ياسين، إشكالية المكان في النص الأدبي، دار الشؤون الثقافية
العامة، بغداد، ط 1، 1986
35. النعيمي، أحمد حمد: إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ط 1، دار
الفراس للنشر والتوزيع، عمان، 2004.
36. النفاش، رجاء، ثلاثون عاماً مع الشعر والشعراء، دار سعاد الصباح، الكويت،
ط 1، 1992.
37. النقيب، مازن، نزار قباني شاعر الحب والوطن، دار حازم للطباعة والنشر،
ط 1، 2002.
38. الوصيفي، عبد الرحمن، نزار شاعراً وسياسياً، دار الحريري للطباعة، القاهرة،
ط 1، 1995، وصدر في طبعته الثانية عن دار الفكر الحديث للطباعة
والنشر، القاهرة، عام 2002.

المراجع المترجمة:

1. أفلاطون، طيماوس، ترجمة: الأب جرجي بربارة، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1968.
2. باشلار، غاستون، جماليات المكان، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط4، 1996.
3. لوتمان، يوري، مشكلة المكان الفني، ترجمة سيزا قاسم دراز، ضمن كتاب جماليات المكان لمجموعة من الباحثين، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988.
4. هاوزر، أرنولد، الفن والمجتمع عبر التاريخ، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، ج1، 1981.

رسائل الماجستير والدكتوراه:

صالح، الياس جرجي، صورة البلاد العربية في أعمال نزار قباني السياسية، أطروحة دكتوراه، الجامعة اللبنانية، 1991